جهود أهل منطقة توات في العناية بموطأ الإمام مالك . عرض وتحليل .

"The Efforts of the People of the Touat Region in Preserving *Al-Muwatta* of Imam Malik – A Presentation and Analysis"

الملخص:

من أهم الأقاليم العلمية في الجزائر إقليم توات، ويأتي هذا البحث ليكشف بعض الجوانب العلمية لهذا الإقليم في العناية بكتب السنة عموما وموطأ مالك خصوصا من خلال الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما هي جهود أهل منطقة توات في العناية بموطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى؟

ويكتسي هذا البحث أهمية كبيرة لتعلقه ببيان عناية أهل الجزائر عموما ومنطقة توات خصوصا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان أهم أهداف هذا البحث هو بيان جهود أهل منطقة توات في خدمة الموطأ، وخلص البحث في الأخير إلى جملة من النتائج أهمها تنوع مظاهر العناية في إقليم توات بموطأ الإمام مالك بين قراءة وإجازة وتدريس مع ملاحظة قلة المعلومات في ذلك وذلك راجع إلى أسباب كثيرة ذكر بعضها في ثنايا البحث.

الكلمات المفتاحية: منطقة توات، الموطأ، الإجازة، قراءة الحديث، تدريس الحديث.

Summary:

One of the most important scholarly regions in Algeria is the Touat region. This research aims to shed light on certain intellectual aspects of this region, particularly its engagement with the books of Hadith in general, and *Al-Muwatta* by Imam Malik in particular. The study addresses the following central question: What are the efforts made by the people of the Touat region in preserving and engaging with *Al-Muwatta* of Imam Malik, may Allah have mercy on him?

This research is of great significance due to its focus on highlighting the care shown by the people of Algeria in general—and the Touat region in particular—for the Hadith of the Prophet Muhammad (peace be upon him). One of the main objectives of the study is to outline the contributions of the Touat region's scholars to the service of *Al-Muwatta*. The research concludes with several findings, most notably the diversity of scholarly engagement with *Al-Muwatta* in Touat, including its recitation, authorization (ijazah), and teaching. However, it also notes the limited availability of information on this topic, due to various reasons discussed within the study.

Keywords: Touat region, Al-Muwatta, ijazah (authorization), hadith recitation, hadith teaching.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمن نعم الله سبحانه وتعالى على هذه الأرض الطاهرة أن أكرمها بالإسلام، وسخر لها من يفتحها من المجاهدين الفاتحين، الذين نشروا فيها دين رب العالمين سبحانه وتعالى، وسنة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، فصارت دار إسلام وإيمان بعد أن كانت دار كفر وطغيان، وصار أهلها مؤمنين موحدين بعد أن كانوا مشركين ووثنيين، فالحمد لله رب العالمين.

وقد كان أهل الجزائر في بدايات دخول الإسلام كغيرهم من أهل المغرب الإسلامي حريصين على هذا الدين تعلما وتعليما، وهو ما دفع كثيرا منهم إلى الرحلة نحو المشرق العربي من أجل طلب العلم، وتعلم سنة النبي صلى الله عليه وسلم من معينها الصافي على أيدي كبار العلماء في ذلك الوقت، وأشهر من كان يرحل إليه وتضرب أكباد الإبل للقائه إمامُ دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى، وهو من الأئمة الكبار الذين جمعوا بين الدراية والرواية، والفقه والحديث، فذاع صيته وانتشرت أقواله وفتاويه، واحتفى الناس بمذهبه وكتبه، والإمام مالك رحمه الله تعالى وإن كان مقلا من التأليف إلا أن كتابه "الموطأ" سارت به الركبان وكتب الله له القبول في سائر الأقطار والأمصار، فتحمله عنه عدد كبير من الرواة ورووه في بلدانهم وأوطانهم، فانتشر هذا الكتاب واشتهر واهتم الناس به قراءة ورواية وإجازة وشرحا... إلى يوم الناس هذا.

إشكالية البحث:

وقد كان لأهل الجزائر نصيب من هذا الاهتمام ومن هذه العناية، ولأن الجزائر أرض واسعة شاسعة فإنه من الصعب على الباحث أن يذكر عناية أهلها بهذا الكتاب في مقال صغير كهذا، ولذلك سنتكلم في هذا المقال المختصر عن عناية منطقة من مناطق الجزائر وهي الصحراء عموما ومنطقة

توات خصوصا، محاولين الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما هي جهود أهل منطقة توات في العناية بموطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى؟

عنوان البحث:

وللإجابة عن هذه الإشكالية يأتي هذا البحث الموسوم بـ " **جهود أهل منطقة توات في العناية بموطأ الإمام مالك . عرض وتحليل .**".

أهمية البحث:

ويكتسي هذا البحث أهمية كبيرة لأنه يعنى ببيان جهود أهل هذه البلاد المباركة في خدمة موطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى، خصوصا وأن المذهب الرسمي المنتشر فيها هو مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى جملة من الأمور أهمها:

1 _ إبراز الجوانب التي اهتم بها أهل منطقة توات وأهل الصحراء في الموطأ.

2 _ إبراز جهود أهل الجزائر في العناية بالموطأ.

3 _ تقييم هذه الجهود وبيان آثارها.

الدراسات السابقة:

تنوعت الدراسات حول منطقة توات وتاريخها وآثارها وعمرانها...، ولكني لم أقف على بحث خاص ببيان عناية أهلها بموطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى، ولكن هذه الأبحاث والدراسات هي المصادر الأساسية التي يستقي منها هذا البحث معلوماته.

المنهج المتبع:

واعتمدت في كتابه هذا البحث على المنهج الاستقرائي الناقص، فلا أزعم أني وقفت على جميع ما كتب حول منطقة توات وإقليم الصحراء، ولكني تتبعت أهم ما كتب عنهما، ولذلك كانت أهم مصادر البحث هي:

خطة البحث:

وجاء هذا البحث مقسما بعد المقدمة إلى مبحثين وخاتمة، تكلمت في المبحث الأول عن منطقة توات وأهميتها وأثرها في البلاد المحيطة بها وعن أهم أعلام الحديث بها، وتكلمت في المبحث الثاني عن عناية أهل منطقة توات بحديث النبي صلى الله عليه وسلم عموما وموطأ مالك خصوصا قراءة وإجازة وتدريسا.

وقد كان جل الاعتماد في كتابة هذا البحث على كتاب الشيخ العلامة محمد باي بلعالم رحمه الله تعالى الذي سماه: "الرحلة العلية إلى منطقة توات، لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات" لسببين:

1 _ قيمة الكتاب العلمية الكبيرة، فقد استطاع الشيخ باي بلعالم رحمه الله تعالى جمع شتات كبير من المعلومات المتعلقة بهذا الإقليم وأعلامه وعاداته...

2 _ وأيضا لشح المعلومات عن أعلام هذه المنطقة في الكتب التي تكلمت عن هذا الإقليم.

ونسأل الله التوفيق والسداد في بيان المراد.

المبحث الأول: إقليم منطقة توات وأهميته الدينية وأشهر أعلام الحديث فيه

من أهم المناطق والأقاليم في الصحراء الجزائرية إقليم منطقة توات، وسنحاول من خلال هذا المبحث التعريف بهذا الإقليم وذكر أهميته وتأثيره في الأقاليم المحيطة به، وذكر أشهر علماء الحديث فيه، وذلك من خلال المطالب الثلاثة الآتية بعد قليل.

ولكن قبل ذلك نذكر كلاما يحمل الحسرة والأسى قاله الشيخ محمد باي بلعالم، وهو كلام سيجد قارئُ هذا البحث أثره وما انجر عنه، حيث قال رحمه الله تعالى: "ولقد قام أبناء هذه المنطقة بنشر الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة ولغة وأدبا في مناطق كثيرة من غرب إفريقيا وشمالها، **ورغم ما قاموا به من نشر الإسلام ونشر العلم وتحفيظهم القرآن فكانوا مع ذلك قليلي الاهتمام بتدوين المعلومات المتعلقة بهذه المنطقة، فضاع بذلك علم كثير ومعلومات تاريخية**، وكان من المفروض تدوينها والمحافظة عليها وإضافتها إلى التاريخ الإسلامي والإفريقي"[1].

المطلب الأول: التعريف بإقليم توات

إقليم توات من أقاليم الصحراء الجزائرية الكبيرة قدرا ومقدارا، ومكانة ومكانا، فإلى جانب اتساع رقعة هذا الإقليم جغرافيا وكونه همزة الوصل بين الجزائر وإفريقيا، فهو إقليم علم وحضارة وإشعاع روحي وفكري امتد أثره إلى البلدان الإفريقية المجاورة، ولذلك فإن التعريف بهذا الإقليم وذكر أثره قبل الشروع في مقصود هذه المداخلة أمر مهم جدا.

---

[1] الرحلة العلية إلى منطقة توات (54/1).

وحتى لا نكرر ما هو مقرر في هذا سأكتفي بتلخيص ما تقدمت الإشارة إليه من كتابين اثنين هما:

1 _ الرحلة العلية إلى منطقة توات" للشيخ باي بلعالم، 2 _ "دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية" للدكتور عبد الله مقلاتي[2].

أ _ الموقع الجغرافي لإقليم توات: يقع إقليم توات على مساحة واسعة في أقصى الجنوب الغربي الجزائري، ويضم هذا الإقليم ثلاث مناطق رئيسية هي:

1 _ منطقة قورارة الواقعة في الشمال وعاصمتها تيميمون.

2 _ منطقة تيديكلت في الجنوب وعاصمتها عين صالح.

3 _ منطقة توات الواقعة بين حدود المنطقتين السابقتين وهي مركز الإقليم، وهي مدينة أدرار حاليا.

ب _ أصل التسمية: اختلف المؤرخون لهذه المنطقة في أصل تسميتها على أقوال كثيرة منها:

1 _ اشتق من الأتوات وهي المغارم.

2 _ اشتق اسمها من أحد البطون المنحدرة من سكان الصحراء الملثمين.

3 _ سميت كذلك لأنها مواتية للعبادة والاستقرار.

4 _ سميت بذلك نسبة لمرض يصيب الرجلين، وتوات بمعنى الوجع في لغة سنغاي.

ج _ التركيبة السكانية لإقليم توات: ضمت ثلاثة أصول رئيسية هي:

1 _ البربر: وأصلهم من الشمال وكانوا يعيشون وسط الصحراء.

2 _ العرب: الذين نزحوا إلى هذه المنطقة بعد تفاقم الخلافات والنزاعات في الشمال.

3 _ الزنوج: وهم من أقدم العناصر السكانية المكونة لهذا الإقليم.

ولعل هذا القدر كاف في إعطاء تصور عن هذا الإقليم الكبير والمتنوع من حيث موقعه وتسميته وتركيبته السكانية، وأما أهمية هذا الإقليم وأثره العلمي والفكري فهو ما نذكره في المطلب الثاني.

---

[2] ينظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات (58/1 وما بعدها)، ودور منطقة توات (21 وما بعدها).

المطلب الثاني: أهمية إقليم توات وأثره في نشر الإسلام في غرب إفريقيا

يحتل إقليم توات موقعا رئيسيا في الربط بين الجزائر وإفريقيا، وقد شهد في عهد ازدهاره بدءً من القرن الخامس عشر انفتاحا على أقاليم السودان الغربي، حيث يشيد كثير من المؤرخين بدوره الحضاري والاقتصادي الذي أسهم في إنضاج حركة علمية زاخرة، وكان من مظاهر هذه الحركة العلمية انتشار الخلاوي العلمية وانتقال العلماء إلى بلاد السودان الغربي للدعوة في سبيل الله ونشر العلم، وقد مارس هؤلاء العلماء التعليم والدعوة، ورابطوا وجاهدوا من أجل نشر الإسلام والثقافة العربية، وتحفل اليوم كتب التراجم بسجل حافل من الإنجازات العلمية والحضارية لعلماء توات[3].

وقد كانت جهود الإمام عبد الكريم المغيلي (909هـ/1505م) في التعليم والدعوة في مناطق السودان طريقا لتوافد علماء توات إلى هذه المناطق وتكثيف الحركة الدعوية بها، وهو ما ساهم في انتشار الإسلام والثقافة العربية في مناطق شاسعة من إفريقيا.

ويشهد لهذا النشاط الدؤوب لعلماء توات في بلدان إفريقيا مؤلفاتهم المخطوطة الموجودة في هذه البلدان الإفريقية كـ: مالي، النيجر، غانا، نيجيريا، موريطانيا، وقد قدم الدكتور أحمد جعفري إحصائيات مهمة لعدد هذه المخطوطات في تلك البلدان وهي:

1 _ مكتبة أحمد بابا التنبكتي بمالي: 127 مخطوطا.

2 _ مكتبة ماما حيدة بمالي: 84 مخطوطا.

3 _ مكتبات غانا: 31 مخطوطا.

4 _ مكتبتي ودان وشنقيط بموريطانيا: 8 مخطوطات.

5 _ مكتبة كادونا وأبادان بنيجيريا: 6 مخطوطات[4].

---

[3] ينظر: دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية (21).

[4] ينظر: واقع المخطوطات بأقاليم توات الكبرى (26).

ولم يقتصر هذا الدور الكبير في نشر تعاليم الإسلام والهجرة في ذلك إلى بلدان إفريقيا على العلماء والأفراد فقط، بل حتى القبائل الكبيرة هاجرت إلى هذه البلدان وكان لها دور كبير في نشر الإسلام فيها، ومن هذه القبائل:

1 _ قبيلة كنتة: وهي قبيلة تنسب إلى الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري، وهي قبيلة استقرت بأرض توات وأنشأت فيها الكثير من الزوايا العلمية التي علمت أهل هذه المنطقة علوم الذين واللغة العربية، ولأنها قبيلة كانت تشتغل بالتجارة فقد كانت تسير القوافل إلى الدول الإفريقية لنشر الإسلام وتعليم الدين، وقد كان لها دور كبير في ذلك[5].

2 _ قبيلة فلان: وهي أيضا قبيلة تنسب إلى الصحابي عقبة بن نافع، وقيل من ولد جعفر بن أبي طالب، وقيل من أبناء أبي بكر الصديق، وهي قبيلة ساهمت في نشر تعاليم الإسلام في كثير من البلدان الإفريقية، ولذلك عرفوا بلقب: الشعب الدعاة إلى الإسلام[6].

ومثل هذا النشاط الدؤوب من علماء هذه المنطقة وقبائلها المختلفة في نشر تعاليم الإسلام لا يستغرب، فقد كان في هذه المنطقة ممن باع نفسه لله تعالى الكثير، ومنهم ـ نحسبه والله حسيبه ـ السيد أحمد بن يوسف التنلاني، فقد ذكر الشيخ باي بلعالم ما وقع له مع أخيه فقال: "وأما السيد أحمد فإنه استقر بتنلان إلى وفاته، وأما أخوه السيد معروف فإنه انتقل إلى المغرب الأقصى واستوطن هناك، وملك ثروة هائلة من الماشية فكان صاحب إبل وبقر وغنم، فتذكر وضعية أخيه السيد أحمد، فبعث له رسالة يطلب منه الالتحاق به ليشاركه في الحياة قائلا له: إنني رجل ذو مال، وأنت بتوات وهي صعيبة[7]، أنصحك أن تلتحق بي.

فأجابه السيد أحمد: لا مال إلا ماء، ولا ظل إلا ظل الجدار، وأما مالك يا معروف فهو بين سباع وضباع"

---

[5] ينظر: دور الكنتية في نشر الإسلام (6).

[6] ينظر: قبيلة فلان بين الماضي والحاضر (5).

[7] هكذا في الكتاب.

علق الشيخ باي بلعالم على هذه القصة فقال: "من هنا تعلم أن السيد أحمد بن يوسف رجل عظيم لا تحركه العواصف ولا تزعزعه الهواتف، ولم يغتر بالثروات مهما بلغت إن لم تكن في وطنه ومسقط رأسه، فاختار ما هو أجدر وأعظم فائدة، فبقي صامدا في تنلان يفجر المياه ويغرس النخيل ويبني المساجد والمدارس ليبقى ذلك صدقة جارية لا تنقطع بالموت..."[8].

المطلب الثالث: أعلام المحدثين في منطقة توات

يقول الشيخ باي بلعالم متحدثا عن منطقة توات: "ولقد أنجبت هذه المنطقة مع بُعدها وفقرها من لا يكاد يحصى من فطاحل الفقهاء والمحدثين وفحول الشعراء الْمُجِيدين في عهد كان فيه الكثير من البلاد العربية والإسلامية يتردى في درك الانحطاط"[9].

ولكن رغم كل هذا فلم تحفظ لنا الكتب التي ترجمت لأعلام هذه المنطقة إلا الفرد بعد الفرد من أعيان العلماء، ومن أشهر علماء الحديث في مدينة توات الذين وقفت عليهم:

1 _ الشيخ أحمد بن يوسف التنلاني (1002هـ/1078هـ): قال صاحب قطف الزهرات: "فسيدي أحمد بن يوسف المذكور شهرته في هذه المنطقة لا تحتاج لدليل فهو كالشمس وقت وقوفها وسط السماء لا يخفى ضوؤها إلا على عليل، فإنه كان شيخا عالما عاملا **ماهرا في علم الحديث وغيره، له تآليف عديدة** وأشعار جيدة..."[10].

قلت: رغم شهرته وبراعته في علم الحديث إلا أننا لا نكاد نعرف عن كتبه وتآليفه شيئا، والله المستعان.

2 _ عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني (1098هـ/1152هـ): قال صاحب قطف الثمرات ناقلا كلام الشيخ عمر بن عبد القادر عن رحلته في طلب العلم إلى مدينة فاس وفيها: "...**وأخذت الحديث عن جماعة منهم سيدي محمد بن أحمد المسناوي، قرأت عليه صحيح البخاري إلا شيئا منه، وقرأت عليه بعضا من الأربعين النووية، وقرأت عليه كثيرا من ألفية**

---

[8] ينظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات (86).

[9] الرحلة العلية إلى منطقة توات (54/1).

[10] ص(79).

العراقي في اصطلاح المحدثين، وأخذت أيضا صحيح البخاري عن سيدي ابن رحال كثيرا منه قراءة والباقي إجازة، وقرأت شمائل الترمذي على سيدي محمد بن عبد السلام بناني وعلى سيدي محمد بن عبد السلام السجلماسي"[11].

3 _ أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري (1160هـ): مما ذكر في ترجمته التي نقلها الشيخ باي بلعالم عن الشيخ عبد الرحمن بن بعمر: "... ثم لما بلغه قدوم شيخنا أبي حفص السابق لبلادنا رحل إليه، فأقام عنده نحو سنة ونصف، وقرأ عليه دروسا في المختصر في أوائل البيوع وجمع الجوامع والسلم والتلخيص ولامية الأفعال، **ودروسا من صحيح البخاري، وقرأ عليه الشفاء...**"[12].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن بعمر عنه أيضا: "... فلما عزم على الرجوع لبلده حزنت لذلك وأخذني من الغم ما الله أعلم به، فاستأذنت أبوي والشيخ أبا حفص في الرحيل معه لبلده فأذنوا لي فرحلت معه، فابتدأت عليه المختصر وما بقي من الألفية، **وقرأت عليه الحديثين الأولين من الأربعين النووية...، وسمعت منه صحيح البخاري إلا ما فاتني من أوائل بعض مجالسه...**"[13].

ولئن كانت قلة هذه المعلومات راجعة إلى قلة تدوين المعلومات، فهي راجعة إلى سبب آخر ذكره الشيخ عبد الرحمن الجنتوري، قال الشيخ عبد الرحمن بن عمر: "وتخرج عليه جماعة، إلا أنه لم يجد ببلاده من الطلبة من يتقن عليه علم المعقول...، ومنع خبث هوى بلده من يرحل إليه من طلبة توات...، ولذلك قال لي رحمه الله في آخر عمره: إنه عزم على الحج والإقامة بمصر لعله يجد من يحمل عنه ما منحه الله من العلوم فاخترمته المنية بقرب ذلك"[14].

4 _ محمد عبد العزيز البلبالي (1261هـ): قال أحد أقرانه عنه: "... لما قرأ على سيدنا وأراد الانتقال لبلده **وكان آخر ما قرأ صحيح البخاري وجمع الجوامع لابن السبكي، وقد ختمهما معا في اليوم التاسع والعشرين من رمضان المعظم عام 1237هـ**"[15].

---

[11] ص86.

[12] ينظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات (173/1).

[13] المصدر نفسه (174/1).

[14] المصدر نفسه (197/1).

[15] ص58.

5 _ محمد فتحا بن أحمد البداوي البكري (1228هـ/1261هـ): قال فيه: "هو الفقيه العلامة البحر الفهامة الحجة الحافظ المحقق الضابط النضار الزاهد الورع الأصولي المفسر **الْمُحَدِّث**...، اجتهد في تحصيل المنقول وشفع المنقول بالمعقول وجالس الجهابذة الفحول..."[16].

والله أعلم بالمراد من إطلاق وصف المحدث ماذا يريد به، ولكن أقل أحواله اشتغاله بالحديث وقراءة كتبه...

6 _ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي (1250هـ/1329هـ): قال صاحب قطف الزهرات من أخبار علماء توات: "أعجوبة زمانه، له القدم الراسخ في أصول الفقه وفروعه والنحو والصرف واللغة **وعلم الحديث** والتفسير، وقصده الطلبة والركبان من جميع الجهات، فكان ملازما للدراسة لا يسأم من بذل العلم والإفادة"[17].

ثم نقل عن الشيخ محمد بن عبد الكريم البلبالي وهو أحد تلامذته أنه قال فيه: "كان رحمه الله عالما عاملا طويل الباع كثير الاطلاع، سلمت له أهل عصره في تقرير الروايات والتوجيهات وجميع أنواع القراءات، فكان إماما قانتا خاشعا ورعا، إمام العلماء الخاشعين **ورئيس روايات المحدثين**، يفزع إليه علماء الصحراء في حل المشكلات...، وبالجملة فهو آخر مهارة المقربين[18] **وخاتم أئمة المحدثين**"[19].

7 _ حمزة بن الحاج أحمد القبلوي الفلاني (1259هـ/ 1335هـ): قال الشيخ باي بلعالم: "... تضلع في العلوم وأصبح من ثواقب الفهوم، فصار أحد الأعلام بتوات، فقيها نحويا **محدثا** لغويا عروضيا..."[20].

ولا شك أن علماء الحديث في هذه المنطقة أكثر مما ذكر بكثير، ولكن شح المعلومات عنهم هو ما جعلنا نكتفي بذكر سبعة فقط، والله المستعان.

---

[16] ص131.

[17] ينظر: قطف الزهرات من أخبار علماء توات (43).

[18] هكذا في الكتاب ولم أعرف معناها.

[19] ص(44).

[20] المصدر نفسه (256/1).

المبحث الثاني: عناية أهل منطقة توات بموطأ الإمام مالك

تقدمت الإشارة في ترجمة الشيخ أحمد بن يوسف التنلاني (1002هـ/1078هـ) في المطلب الثالث من المبحث الأول أنه كان عالما كبيرا، وشيخا مشهورا، ماهرا في علم الحديث وله مؤلفات ومصنفات كثيرة...، إلا أن هذه الشهرة والمكانة لم تُمكن من حفظ جهوده العلمية والدعوية، بل لم تمكن حتى من حفظ أسماء بعض كتبه ومؤلفاته، وهذا الإشكال إشكال عام ومنتشر، ولذلك عند البحث عن جهود علماء منطقة توات في العناية بموطأ الإمام مالك لا تكاد تجد إلا معلومات قليلة وإشارات يسيرة في ذلك، وسأحاول في هذا المبحث ذكر ما وقفت عليه من ذلك في المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: عناية أهل توات بقراءة حديث النبي صلى الله عليه وسلم عموما والموطأ خصوصا.

من السنن الحميدة التي انتشرت بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عقد مجالس قراءة كتب الحديث المسندة كالموطأ والصحيحين وغيرهما، وختمها مرة بعد مرة، وممن عرف بالاشتغال بقراءة الحديث النبوي وسماعه في منطقة توات:

1 _ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي (1250هـ/1329هـ): قال صاحب قطف الزهرات من أخبار علماء توات: "لم يزل ملازما للدراسة إفادة واستفادة من دخوله للكتب في حالة الصبا، إلى أن نزل به المرض المتوفى فيه، **وهو مشتغل بقراءة الحديث في المسجد**..."[21].

2 _ عبد الرحمن السكوتي (1285هـ/1333هـ): قال الشيخ باي بلعالم: "وحضر مجالس شيوخ البلدة التي كانت زاخرة بالعلماء متعددة المجالس العلمية، **فطفق يتردد بين هذا المجلس وذاك وخصوصا مجلس خاله الشيخ حمزة بن الحاج أحمد...، وسمع منه الحديث الشريف**..."[22].

3 _ حمزة بن الحاج أحمد القبلوي الفلاني (1259هـ/ 1335هـ): قال الشيخ باي بلعالم: "أما الحديث فكان يدرسه في أوقاته الخاصة به، **ومن عادته رحمه الله قراءة صحيح البخاري في منتصف رجب، ويختمه في منتصف شوال**، ويقيم احتفالا ضخما للابتداء...، وهاته العادة –عادة الاحتفال بالحديث الشريف معروفة في سائر النواحي التواتية ومتوارثة يرثها الخلف عن السلف، كما كان من عادته رحمه الله في رمضان الجد والاجتهاد في قراءة **القرآن وسرد كتب الأحاديث الصحاح**..."[23].

ولا شك أن موطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى على رأس كتب الصحاح، كيف لا وهو الأصل واللباب وهو المقدم في هذا الباب كما قال الإمام ابن العربي رحمه الله تعالى.

4 _ الحاج محمد بن عبد القادر بلعالم القبلاوي (1298هـ/1372هـ): قال الشيخ باي بلعالم: "**وكان يقرأ صحيح البخاري كل سنة ويقيم الاحتفال لابتدائه وختمه اقتداء بأسلافه علماء توات**"[24].

العناية بيوم ختم كتب الحديث:

قال الشيخ باي بلعالم: " ومن العوائد الجارية لدى الفلانين في أقبلي (ساهل) وأولف وهي قديمة يعود تاريخها إلى حياة الشيخ محمد بن مالك والشيخ أحمد العالم، مناسبة ختم الحديث النبوي بأقبلي، وهي الآن مقر لمدرسة مصعب بن عمير بحي الركينة، فيتسابق الناس لها من كل ضاحية وناحية، بما

---

[21] قطف الزهرات من أخبار علماء توات (44).

[22] الرحلة العلية إلى منطقة توات (272/1).

[23] الرحلة العلية إلى منطقة توات (256/1).

[24] الرحلة العلية إلى منطقة توات (280/1).

في ذلك شيوخ وعلماء المنطقة ورؤساء الأعلام وطلبة العلم في جموع مختلفة، **يكسوها جمال الحديث ووقاره وجلاله، فلا تسمع إلا حديثاً حسناً، ولا ترى إلا نظاماً يسود الجميع، خروجاً ودخولاً، وأنه بحق لمشهد مؤثر رائع.**

فيبدأ الجلسة شيخ المدرسة بعد افتتاحها بآيات من الذكر الحكيم من أحد الطلبة، **ثم يتولى الشيخ بنفسه سرد الأبواب الأخيرة من صحيح البخاري، أما صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك فإن الطلبة يسردون أحاديثها، ويتولى الشيخ التعليق عليها، وشرح ما أمكن منها. ثم يشرع الشيخ في بداية صحيح البخاري للسنة المقبلة.**

وفي نهاية التظاهرة تعقد عقود الزواج، وتسمى المواليد، وتوزع الجوائز على المتفوقين في الدراسة، وحفظ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، واللغة تحفيزاً لهم على الاستمرارية والمنافسة، وقد يدوم الحفل إلى الساعة الواحدة زوالاً. وينوه الشيخ بمكانة هذه المدينة المضيافة التي عرفت بالكرم والعلم، ويرتجل كلمات قصيرة ومفيدة يشكر فيها الحاضرين على تلبية الدعوة خصوصاً أولئك الذين تجشموا عناء السفر.

ويشارك جميع الحاضرين في مأدبة الغداء التي أقيمت على شرفهم، وهكذا ينتهي الحفل بالتصافح وتبادل التحايا"[25].

وهذا النقل من الشيخ باي بلعالم دليل على:

1 _ تعظيم أهل توات لحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

2 _ تأدب أهل توات مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

3 _ عناية أهل توات بثلاثة كتب من كتب الحديث وهي موطأ الإمام مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم رحمة الله تعالى على الجميع.

وأكثر هذه الكتب عناية هو صحيح الإمام البخاري ثم موطأ الإمام مالك رحمة الله على الجميع، وهي نتيجة صرح بها الشيخ باي بلعالم عندما قال: "أما الكتب التي تدرس من الحديث فهي الجامع الصحيح للإمام البخاري، موطأ الإمام مالك بن أنس، صحيح مسلم، الشفا للقاضي عياض،

---

[25] إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر (50).

والعناية بصحيح البخاري أكثر منها من غيره، ثم يليه في الدرجة كتاب الموطأ للإمام مالك، ثم صحيح مسلم"[26]

المطلب الثاني: الإجازة بالموطأ في إقليم توات:

أغلب الإجازات في إقليم توات هي إجازات عامة، يقول فيها الشيخ للطالب: أجزتك في المنقول والمعقول، وبحث الدكتور عبد الرحمن بن حسان شاهد على ذلك في رسالته للماجستير المسماة "أدب الإجازة في إقليم توات إبان القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين – جمع ودراسة وتحقيق –" فقد ذكر فيها (16) إجازة من إجازات أهل منطقة توات، وكلها إجازات عامة كما تقدم ذكره.

ولكن هذا لا يمنع وجود إجازات صريحة في التنصيص على الكتب التي أجاز فيها الشيخ طالبه، ومن الإجازات الصريحة التي وقفت عليها:

1 _ إجازة الشيخ الجنتوري (1160هـ) لتلميذه عبد الرحمن بن عمر، ونقل هذه الإجازة عن الشيخ عبد الرحمن بن عمر الشيخ باي بلعالم، ومما جاء في هذه الإجازة الطويلة: "وأخبراه – أي الشيخين: السيد أحمد بن الحاج، والسيد محمد بن الحسن القَبَلِيين – **أيضا بالموطأ رواية يحي بن يحي الليثي بالسند المتقدم إلى محمد بن المختار بن الأعمى العلوي** عن أبي إسحاق إبراهيم بن الحسن الكرخي إجازة...".

قال: "وأخبره الأولان – أي الشيخين المذكورين قبل قليل – أيضا **إجازة بصحيح البخاري بالسند المتقدم عنهما إلى زكرياءء الأنصاري عن الحافظ ابن حجر**، ح، وأخبره به أيضا الشيخ سالم بن محمد النفراوي القاهري عن شيخه أحمد النفراوي... **دراية لكثير منه، وإجازة لباقيه**، والشبراملسي دراية لكثير منه وإجازة لباقيه...".

وقال أيضا: "وهذا السند أعلى، وبه روى الأولان **وأخبراه أيضا بصحيح مسلم إجازة بالسند المتقدم إلى شيخ الإسلام زكرياء ...**"

---

[26] الرحلة العلية إلى منطقة توات (299/1).

وقال أيضا: "**وأجازه النفراوي المذكور في الموطأ والسنن الأربعة والشمائل بسنده المتقدم إلى زكرياء الأنصاري...**"

وقال أيضا: "**وأجازه في صحيح البخاري الشيخ أحمد الديربي الشافعي الغنيمي الأزهري عن شمس الدين البابلي سماعا لبعضه وإجازة لباقيه...**"[27].

2 _ حمزة بن الحاج أحمد القبلوي (1335هـ): قال الشيخ باي بلعالم في ترجمة الشيخ حمزة بن الحاج أحمد: "...**أما إجازة صحيح البخاري** فهي: يقول كويتبه حمزة بن الحاج أحمد سلك الله به السبيل أحمد: **أخبرنا بصحيح البخاري**... والدي الحاج أحمد **سماعا لأوله وآخره وإجازة في قراءته...**"[28].

فائدة:

من مميزات مجالس الإجازة في بلاد توات ما ذكره الشيخ باي بلعالم قائلا: "ومن العادة عند الشيوخ أنهم يسردون إجازتهم في الحديث ابتداء من المجاز إلى مؤلف الكتاب ثم يقرؤون[29]".

المطلب الثالث: عناية أهل توات بتدريس الموطأ

تدريس كتاب من كتب الحديث المسندة أمر زائد على مجرد سرد أحاديث أبوابه وأحاديثه، فتدريس كتاب من كتب الحديث هو الوقوف مع أحاديثه وأبوابه وشرحها وبيان معانيها وما يستنبط منها...، وهذا التدريس ليس له سبيل واحد ولا منهج واحد، فكل إمام وكل عالم له هدف من تدريس كتاب من كتب الحديث، فهناك من يسلك سبيل الاختصار والاقتصار على بعض الجوانب كشرح الغريب أو بيان المشكل أو الكلام عن الرواة...، وهناك من يسلك سبيل البسط والتطويل وذكر تفاصيل المسائل وفروعها...، كل بحسب ميوله وتخصصه وهدفه من تدريس الكتاب.

شرط تدريس كتب الحديث في منطقة توات:

---

[27] ينظر نص الإجازة الطويلة في: الرحلة العلية إلى منطقة توات (180/1 حتى 192/1).

[28] الرحلة العلية إلى منطقة توات (270/1).

[29] الرحلة العلية إلى منطقة توات (271/1).

قال الشيخ باي بلعالم: "ومن المعلوم أن هذه الكتب الحديثية لا يتصدى لقراءتها إلا من له كفاءة تؤهله لتدريس الحديث وشرح معانيه للطلبة والمستمعين، ويكون ذلك بإجازة تتضمن الإذن للمعني بقراءة الحديث من عالم مجاز، أو حضور شيخ ماهر قد مارس العلوم الشرعية لقراءة الحديث حتى يتدرب الطالب على القراءة، ويتمكن من معرفة المصطلحات والرموز التي يشير إليها المصنف في كتابه.

ونظرا لكون قراءة الحديث يشترط فيها الإجازة، كان أسلافنا علماء توات متمسكين بذلك لا يقرؤون الحديث إلا بشروطه، ولا يأذنون في قراءته إلا لمن يتمتع بالكفاءة التامة"[30].

ومن النصوص الدالة على عناية أهل منطقة توات بتدريس الموطأ، ما قاله الشيخ باي بلعالم عند ذكره لمناسبة ختم الحديث النبوي في منطقة توات: "فيبدأ الجلسة شيخ المدرسة بعد افتتاحها بآيات من الذكر الحكيم من أحد الطلبة، ثم يتولى الشيخ بنفسه سرد الأبواب الأخيرة من صحيح البخاري، **أما صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك فإن الطلبة يسردون أحاديثها، ويتولى الشيخ التعليق عليها، وشرح ما أمكن منها**. ثم يشرع الشيخ في بداية صحيح البخاري للسنة المقبلة"[31].

وهذا دليل على أن قراءة الموطأ في منطقة توات لم تكن مجرد سرد لأحاديثه وأبوابه، وإنما هي قراءة شرح وبيان، والله أعلم.

وممن يمكن أن يقال إنه درس الموطأ:

1 _ الشيخ عبد الرحمن الجنتوري (1160هـ): ولم أقف على نص صريح في ذلك، ولكن يمكن استنباط ذلك من مجموع ترجمته التي تقدم بعضها، وما تقدم أيضا من ذكر بعض إجازاته في موطأ مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم.

وقد قال عنه تلميذه عبد الرحمن بن عمر: "وكان رحمه الله ملازما للتدريس مدة عمره إلا ما عورض له من السفر والمرض، **درس في التفسير والحديث** وعمدة الأحكام وغيرهما وأصول الفقه وفروعه..."[32].

وقد تقدم قبل قليل أن عادة أهل توات قراءة هذه الكتب وتدريسها، ولذلك لا يبعد القول بأن الشيخ عبد الرحمن الجنتوري أحد الذين درسوا الموطأ في منطقة توات، والله أعلم.

---

[30] الرحلة العلية إلى منطقة توات (300/1).

[31] إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر (50).

[32] ينظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات (197/1).

2 _ الشيخ محمد باي بلعالم: قال الأستاذ يوسف بن حفيظ في ترجمته للشيخ محمد باي بلعالم: "من سنن الشيخ- أطال الله بقاءه- منذ أزيد من ثلاثين سنة وهو يعكف على تدريس صحيح البخاري- رواية ودراية- بين شهري شعبان وذي الحجة كل عام، **كما يختم موطأ مالك تدريساً مرة كل عام** وصحيح مسلم كل عامين وقد ختم تدريس تفسير القرآن لمحمد حسن خان ناهيك عن تدريس المتون والكتب التي ألفها"[33].

الخاتمة:

يمكن القول في ختام هذا البحث أن النتائج المتوصل إليها هي:

1 _ أهمية إقليم توات العلمية وإشعاعها الفكري والحضاري على الدول الإفريقية المجاورة لم يشفع لها بحفظ هذا التراث للأجيال اللاحقة، ولذلك وجدنا شحا كبيرا في المعلومات المتعلقة بعلماء توات ونشاطهم العلمي.

2 _ اشتهر كثير من علماء توات بالعناية بحديث النبي صلى الله عليه وسلم رواية ودراية بل والبراعة والنبوغ عند بعضهم، ورغم ذلك لم تحفظ لنا الكتب إلا النزر اليسير حولهم.

3 _ كانت عناية أهل توات بكتب السنة منصبة حول ثلاثة كتب هي: صحيح البخاري، موطأ مالك، وصحيح مسلم، واهتمامهم بهذه الكتب بحسب ترتيب ذكرها.

4 _ مما تميز به أهل توات تعظيمهم لهذه الكتب وختمها كل عام، وإقامة حفل كبير مشهود.

5 _ مما تميز به أهل توات في قراءتهم لكتب الحديث إسنادها إلى المتمكنين في علم الحديث رواية ودراية.

6 _ مما تميز به أهل توات عند قراءة كتب الحديث البدء بذكر الإجازة من الشيخ المجيز إلى مؤلف الكتاب ثم الشروع في القراءة والسرد.

7 _ جوانب العناية بالموطأ عند أهل توات التي وقف عليها الباحث ثلاثة هي:

أ _ قراءة الموطأ وختمه.

ب _ الإجازة والاستجازة.

ج _ تدريس كتاب الموطأ وشرحه شفهيا.

ولم أقف في حدود بحثي على شرح مكتوب، أو على مؤلف تكلم عن جانب من الجوانب المتعلقة بهذا الكتاب.

---

[33] مقال في جريدة البصائر الصادرة في 25 شعبان 1427هـ، 18 سبتمبر 2006، بعنوان رجال صدقوا، وهو مثبت في مقدمة كتاب إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر (77).

8 _ من أهم الكتب التي حفظت لنا جوانب مهمة من تاريخ منطقة توات ونشاطها العلمية كتاب الرحلة العلية للشيخ محمد باي بلعالم، ولذلك ينبغي الإشادة بهذا الكتاب والتنويه به وبمؤلفه.

ويوصي الباحث في ختام هذا البحث بما يلي:

1 _ العناية بمخطوطات علماء منطقة توات الموجودة في خزائن مكتبات البلدان الإفريقية المجاورة كمالي وغانا والنيجر وموريطانيا.

2 _ العمل على إنشاء معجم علمي لعلماء الجزائر الذين خدموا موطأ مالك وصحيح البخاري بناء على نتائج هذا الملتقى وملتقى البخاري في العام الماضي، مع إضافة الجهود العلمية المختلفة في هذا الباب دوريا وبصفة مستمرة.

فهرس المصادر والمراجع:

1) _ أدب الإجازة في إقليم توات إبان القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين – جمع ودراسة وتحقيق –، الدكتور عبد الرحمن بن حسان، رسالة ماجستير بالجامعة الإفريقية أحمد دراية، أدرار، ونوقشت بتاريخ: 25 ماي 2014م.

2) _ إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر، محمد باي بلعالم، كتاب بدون طبعة، موجود على المكتبة الشاملة، 1433هـ.

3) _ الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، محمد باي بلعالم، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م.

4) _ دور الكنتية في نشر الإسلام، عبد الله إسماعيلي وآخرون، مداخلة في ملتقى "الإسلام في إفريقيا"، جمعية الأبحاث والدراسات التاريخية، أدرار، 1988م.

5) _ دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، عبد الله مقلاتي ورموم محفوظ، ط1، دار الشروق، 1430هـ/2009م.

6) _ قطف الزهرات من أخبار علماء توات، محمد عبد العزيز سيدي عمر، مطبعة دار هومة، صحراء الجزائر، 2002م.

7) _ واقع المخطوطات بأقاليم توات الكبرى، أحمد جعفري، مقال في مجلة النخلة، تصدرها مديرية الثقافة لولاية أدرار، عدد تجريبي، 2005م.